مع ابن كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هذه الآيات قوله:

يُخبِرُ تعالى أنه مالكُ السموات والأرض ومَن فيهنَّ، وأنه قد كَتَب على نفسه الرحمةَ، كما ثبت في الصحيحين، عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ - فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ - إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي » (٢)

وقولُه: ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ﴾ أقْسَمَ بنفسه الكريمة

(١) الأنعام: ١٢- ١٦.

(٢) البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قوله تعالى: وهو الذي يبدأ الخلق، رقم ٢٩٥٥.

ليجمعنَّ عبادَه لميقات يومٍ معلوم، وهو يوم القيامة الذي ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي: لا شكَّ فيه عند عباده المؤمنين، فأمَّا الجاحدون المكذِّبون ﴿ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (١)

﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي: لا يُصدِّقُونَ بالمعادِ، ولا يخافونَ شرَّ ذلك اليوم.

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ أي: كُلُّ دابةٍ في السموات والأرض، الجميعُ عبادُه وخَلْقُه، وتحتَ قَهْرِه وتصرفه وتدبيره. ولا إله إلا هو ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أي: السميعُ لأقوالِ عباده، العليمُ بحركاتهم وضمائرهم وسرائرهم.

ثم قال لعبده ورسوله محمدٍ ﷺ، الذي بعثه بالتوحيد العظيم والشَّرْع القويم، وأمره أن يدعو الناس إلى صراطه المستقيم.

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (٢)، والمعنى: لا أتَّخذُ وليًّا إلاَّ الله وحده لا شريك له؛ فإنه فاطر السموات والأرض، أي: خالقهما ومبدعهما على غير مثال سَبَق.

﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ أي: وهو الرزاق لخَلقه من غير احتياجٍ إليهم، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ

(١) التوبة: من الآية ٤٥.
(٢) الزمر: ٦٤.

أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ (١)

﴿ قُل إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ أي: من هذه الأُمَّة ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ ﴾ يعني: العذاب ﴿ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ﴾ يعني: فقد رَحِمَه الله ﴿ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ كما قال: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ (٢)، والفوز: هو حصولُ الرِّبح، ونفي الخسارة.

أخي المسلم: تَدَبَّرْ ما جاء في هذه الآية؛ فإنها هداية لك إلى ما يُصلِحُ شأنَك، ويُوجِّه قَصْدك، ويُسدِّد خُطاك إلى الفوز والنجاة ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ حقيقةٌ لا جدالَ فيها. والاستبصارُ بها يعني إصلاح حال الإنسان بصدق عبوديته لربِّه، وإخلاصه القصدَ له؛ حتى لا يتَّخذَ

(١) الذاريات: ٥٦- ٥٨.

(٢) آل عمران: من الآية ١٨٥.

الناسُ بعضُهم بعضاً أرباباً من دون الله، وهم جميعاً لا يملكون شيئاً، بل لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً.

وعندما يتَّخذ الناسُ بعضُهم بعضاً أرباباً من دون الله تفسد روابطُهم، ويَسُوء مصيرُهم، ولا خلاصَ من ضياعٍ وفسادٍ إلاَّ باستبصارِ هذه الحقيقة في كُلِّ شأنٍ من شئونهم؛ ليذَّكروا وليتَّقُوا.

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (١)

إنَّ هذهِ الحقائق لها شأنٌ - أيُّ شأنٍ - في مخاطبةِ الإنسان، ودعوته إلى اتِّباع الحقِّ الذي جاء به المرسلون.

فالله وحده الذي له ما في السماوات وما في الأرض، ومَن يُدْعَى من دونه لا يملكُ مثقالَ ذرَّةٍ في السماوات ولا في الأرض، فهو وحده جديرٌ أن يُعبَدَ وأن يُطاعَ، والله قد كَتَبَ على نفسه الرحمةَ. ورحمتُه وسعت كُلَّ شيءٍ، فليَفِرَّ العبدُ إليه، وليُخلص القصدَ له، وليُسارِع بالتوبة والاستغفار، في طمأنينةٍ وثقةٍ، ودونَ يأسٍ أو قنوط.

﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ (٢)

---

(١) المؤمنون: ٨٤- ٨٧.

(٢) الزمر: ٥٣.

والله وحده هو الذي يجمعُ الأوَّلينَ والآخرين إلى ميقاتِ يومٍ معلوم، فإليه وحده مصيرُهم، فهو جديرٌ أن يُقْصَدَ وأن يُخْشَى ويُطاع.

والإيمانُ بذلك أصلٌ في الاستقامة والنَّجاة ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

والله وحده له مَا سَكَنَ في الليل والنهار. الجميعُ عبادُه وخَلْقه، وتحت قهْره وتصرفه وتدبيره، لا إله إلا هو ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فلا ملجأ لأحدٍ منه إلاَّ إليه، ولا توكُّلَ إلاَّ عليه، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلاَّ به.

ومَن كان له كُلُّ ذلك سيُحاسبُ الناسَ على ما يقعُ منهم مخالفاً لذلك.

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾[1]

أخي المسلم: حقائقُ يجبُ أن تُرَى دلالتها في خُلُق المؤمن وعمله، وأن تسودَ في شئون الناس وروابطهم؛ لينتَفي من حياتهم الكِبرُ والبغيُ، والتسلُّط والاستعلاء.

حقائقُ لا جدَالَ فيها.

---

(١) الأنعام: ١٤- ١٨.

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ﴾[1]

فَلْنُقِمْ جميعَ أمورِنا على هذه الحقائقِ؛ ليسلَم إيمانُنا من إلباسِهِ الظلم والظلمات. ولْتَسْلَم قلوبُنا من الشبهات والشهوات، ولتتَّسِم أعمالُنا كُلُّها بالصالحات الباقيات؛ لنفوزَ بما يفوزُ به مَن خاف مقام ربِّه، ونَهَى النفسَ عن الهوى.

(١) النجم: ٣١.

مع ابنِ كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هذه الآيات قوله:

قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ يعني: الفقر والضيق في العَيْشِ ﴿ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ وهي الأمراضُ، والأسقامُ، والآلام ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ أي: يدعون الله ويتضرَّعون إليه ويخشعون.

قال الله تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ ﴾ أي: فَهَلاَّ إذْ ابتليناهم بذلك تَضَرَّعوا إلينا، وتمسكَنُوا إلينا ﴿ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي: ما رقَّت ولا خَشَعت ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ أي: من الشرك والمعاندة والمعاصي.

---

(١) الأنعام: ٤٢- ٤٥.

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ ﴾ أي: أعرضوا عنه، وتناسوه، وجعلوه وراء ظهورهم ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي: فتحنا عليهم أبوابَ الرزقِ من كُلِّ ما يختارون. وهذا استدراجٌ منه تعالى، وإملاءٌ لهم. عياذاً بالله من مَكْره؛ ولهذا قال: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا بِمَآ أُوتُوٓا ﴾ أي: من الأموالِ والأولادِ والأرزاقِ ﴿ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً ﴾ أي: على غفلةٍ ﴿ فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ أي: آيسُونَ من كُلِّ خيرٍ.

عن ابن عباس (المُبْلِس): الآيس، وقال الحسنُ البصري: مَن وسَّع الله عليه فلم يَرَ أنـــه يُمْكَرُ به، فلا رأيَ له. ومَن قَتَّر عليه فلم يَرَ أنه يُنْظَرُ له، فلا رَأيَ له، ثُمَّ قرأ: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا بِمَآ أُوتُوٓا أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ قال الحسنُ: مُكِرَ بالقوم وربِّ الكعبة؛ أُعْطُوا حاجتَهم ثم أُخِذُوا، وقال قتادةُ: بَغَتَ القومَ أمرُ الله، وما أخذ الله قومًا قط إلاَّ عند سكرتهم وغِرَّتهم ونعيمهم، فلا تغتروا بالله؛ فإنه لا يغتر بالله إلاَّ القوم الفاسقون.

وروى الإمام أحمدُ، عن عقبة بن عامر، عن النبي ﷺ قال: « إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنْ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ. ثُمَّ تَلا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا بِمَآ أُوتُوٓا أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ »[1]

وروى الإمام أحمدُ وغيرُه، عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ

(١) أحمد: مسند الشاميين، حديث عقبة بن عامر الجهني، رقم ١٦٦٧٣.

كان يقول: « إذا أراد الله بقومٍ بقاءً أو نَماءً [١] رزقهم القَصْدَ [٢] والعفاف [٣]، وإذا أراد الله بقومٍ اقتطاعًا [٤] فَتَحَ لهم - أو فتح عليهم - بابَ خيانة [٥] » [٦]

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

أخي المسلم: تَدَبَّرْ هذه الآيةَ، واعلَم ما تدعوك إليه وما تُحذِّرك منه، وكُنْ على فقْه بدينك؛ فإذا رأيتَ الآياتِ تَصِفُ لكَ حالَ قومٍ ساءتْ عاقبتُهم، فاحذَرْ أنْ تسلك سبيلَهم، وأن تكونَ مثلهم؛ فإن القرآنَ يَعِظُكَ بواقعٍ لتعرِفَ صفاتِ المؤمنين، فتتَّبِع سبيلَهم. ولا تتبع غيرَ سبيل المؤمنين.

وسبيلُ المؤمنين هو السبيلُ. إنْ أصابتهم سرَّاءُ شكروا، وإنْ أصابتهم ضَرَّاءُ صبروا. يذكرونَ الله في الحالَيْن ولا يغفلون، فأمرُهم كُلُّه خيرٌ. خيرٌ في السَّراءِ، وخَيرٌ في الضرَّاء.

والخيرُ هنا في موقفهم من السَّراء والضَّراء؛ فإنَّ نعمةَ السَّراء لا تشغلهم عن ذِكر الله وشكره، وإصابتهم بالضَّراء لا تُيَئسهم من رحمة الله ولا تُقنطهم.

إنهم يذكرون الله في جميع الأحوال ويتضرَّعون، ويشكرون نعمته ولا يكفرون، ويصبرون على ما أصابهم ولا يجزعون. فهم - في جميع الأحوال - رابحون.

---

(١) نماءً: أي زيادة في الخير، وسعةً في الرزق.
(٢) القَصْد: التوسط والاعتدال في الأمور، بلا غُلُوٍ أو تفريط.
(٣) العفاف: الكف عن المنهي شرعاً، وعن السؤال من الناس.
(٤) اقتطاعا: أي يسلبهم ويقطعُ عنهم ما هم فيه من خيرٍ ونعمة وبركة.
(٥) خيانة: أي نَقْص بما ائتمنوا عليه من حقوق الله تعالى وحقوق خلقه.
(٦) مسند الشاميين للطبراني: ١/٢٥، رقم ١٧.

والأمورُ - دائماً - بعواقبها ونتائجها، فمَن حَسُنَت عاقبتُه مع الضرَّاء فقد فاز، ومَن ساءت عاقبتُه مع السَّراء فقد خَسِرَ. والإنسانُ مُمْتَحَنٌ بالسَّراء والضَّراء، وفوزُه وخسرانُه في إجابته عمَّا يُمتَحَنُ به.

روى مسلم، عَنْ صُهَيْب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: « عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ - وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَد إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ - إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » (١)

فكُنْ - أخي المسلم - كذلك، ولا تكُن من أولئك الذين قَسَتْ قلوبُهم، وزيَّن لهم الشيطانُ ما كانوا يعملون؛ فإن سُنَّةَ الله قد اقتضت أن يبتلي الناسَ بالسَّراء والضَّراء - وهو أعلمُ بهم - فمَن أدرك حكمةَ الابتلاء، أحسنَ في الحالَيْن ولم يُسيء، ومَن تعلَّق بالعاجلة، واطمأنَ إليها إذا أُنْعِمَ عليه فيها، أعرضَ ونَأَى بجانبه، وإن مَسَّهُ الشرُّ فيؤوسٌ قنوطٌ. فهو مُدَمَّرٌ في الحالَيْن، خاسرٌ في الإجابتين، وهؤلاء حين يُؤخَذُون يُؤخَذُون في فرحتهم، ويُؤخَذُون بغتةً وهم لا يشعرون !

ومَن تدبَّر القرآنَ عَرَفَ ما تُوحي به هذه الآياتُ وما تدعو إليه، وهي تَصِفُ حالَ هؤلاء، وتُبَيِّنُ عاقبتَهم. إنها تُحذِّرُ المؤمنَ أن يقعَ فيما وقع فيه هؤلاء، وتُبصِّره بما يجب إن يكون عليه في جميع الأحوال.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(١) مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم ٥٣١٨.

مع ابنِ كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۦ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [١]

فقد جاء في تفسير هذه الآيات قوله:

يقول الله تعالى لرسوله محمد ﷺ: قُلْ لهؤلاء المكذِّبين المعاندين: ﴿ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ ﴾ أي سلبكُم إيَّاها كما أعطاكموها، كما قال: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ ﴾ [٢]، ويُحتمَل أن يكونَ هذا عبارة عن مَنْع الانتفاع بهما الانتفاع الشرعي، ولهذا قال: ﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم ﴾ كما قال: ﴿ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ ﴾ [٣]، وقال: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ [٤]

---

(١) الأنعام: ٤٦- ٤٩.
(٢) الملك: من الآية ٢٣.
(٣) يونس: من الآية ٣١.
(٤) الأنفال: من الآية ٢٤.

وقوله: ﴿ مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۦٓ ﴾ أي: هل أحدٌ غيرَ الله يقدِرُ على ردِّ ذلك إليكم إذا سَلَبَهُ الله منكم ؟

لا يقدِرُ على ذلك أحدٌ سواه. ولهذا قال عَزَّ شأنُه: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ أي: نُبيِّنُها ونُوضِّحها ونُفسِّرها دَالَّةً على أنه لا إله إلا الله، وأنَّ ما يعبدون من دونه باطلٌ وضلالٌ ﴿ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ أي: ثُمَّ هُم - مع هذا البيان - يُعرِضون عن الحق، ويصدُّون الناسَ عن اتِّباعه. قال العوفي: عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عنهما: ﴿ يَصْدِفُونَ ﴾ أي: يَعْدِلون. وقال مجاهدُ وقتادةُ: يُعرِضون. وقال السُّدِّيُّ: يَصُدُّون.

وقوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً ﴾ أي: وأنتم لا تشعرون به حتى بَغْتَكُم وفَجَأَكُم ﴿ أَوْ جَهْرَةً ﴾ أي: ظاهرًا عَيَانًا ﴿ هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ أي: إنما كان يُحيطُ بالظالمين أنفسهم بالشرك بالله ﷻ، وينجو الذين كانوا يعبدون الله وحدَه لا شريك له، فلا خوفٌ عليهم ولا هُم يحزنون، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (١)

وقوله: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ أي: مُبشرين عبادَ الله المؤمنين بالخيرات، ومُنذرين مَن كَفَرَ بالله النقماتِ والعقوبات. ولهذا قال سبحانه

(١) الأنعام: ٨٢.

وتعالى: ﴿ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ ﴾ أي: فمَن آمنَ قلبُه بما جاءوا به، وأصلحَ عملَه باتِّباعه إيَّاهم ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: بالنسبة إلى ما يستقبلونه ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أي: بالنسبة إلى ما فَاتَهم وتركوه وراءَ ظهورهم من أمرِ الدنيا وصنيعِها. الله وليُّهم فيما خَلَّفُوه، وحافظُهم فيما تركوه.

ثم قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ أي: يَنَالُهم العذاب بما كفروا بما جاءت به الرُّسُل، وخرجوا عن أوامرِ الله وطاعته، وارتكبوا محارمه ومناهيه.

أخي المسلم: ذاك ما ذكره ابنُ كثيرٍ في تفسير هذه الآيات ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

وللناسِ جميعاً في هذه الآياتِ إعذارٌ وإنذارٌ، وللمؤمنينَ فيها موعظةٌ وتبصرةٌ؛ فإنَّ الله الذي جعل للناسِ السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ؛ ليعبدوه ويشكروه، هو الذي يملك أن يأخذها كما أعطاها.

وإذا أخذَها فمَن - مِمَّنْ يُدْعَى من دون الله - يمكنُ أن يأتيَ بها ؟!

والله ﷻ يُخاطبُنا بالنعمة سَلباً وإيجاباً؛ لنسلُكَ بالنعمةِ مَسْلَكَ الوفاء والشكر، لا مَسْلَك الجُحود والكُفر.

وتعالَوْا بنا نتأمل بعضَ هذه النِّعَم ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ (١)

فالله قد جعل لنا ﴿ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ (٢)، وتلك تستوجبُ أن نُصلِحَ في الأرض كما أمر الله، ولا نُفْسِد. فإن أَبَى الناسُ إلاَّ المخالفةَ والإفساد، فإن الذي جعلها للناسِ قراراً يمكنُ أن يَخْسِفَ بهم الأرض. ولا أَمْنَ ولا أمان إلاَّ بطاعةِ الرحمن.

﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ ﴾ (٣)

والخطابُ بذلك لا تُخفى دَلالته، ولا تغيبُ عن المستبصر هدايتُه؛ ذلك أنَّ المراد هو الإيمان والاستقامة كما أمر الله الذي جعل الأرض قراراً، وهو الذي يُحذِّر من الإفساد فيها؛ حتى لا تُخسَفَ بمَن عليها.

ومن نِعَمِ الله على الناس إنزالُ الماءِ من السماء. والناسُ يُخاطَبون بهذه النعمة؛ ليعبدوا الله وحده ولا يشركوا به.

يُخاطبهم بها إيجاباً وسلباً.

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ

(١) النحل: من الآية ١٨.
(٢) غافر: من الآية ٦٤.
(٣) الملك: ١٦، ١٧.

ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [1]، ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [2]

والخطابُ بذلكَ - كذلكَ - لا تَخْفى دَلالته، ولا تغيبُ عن المستبصر هدايته، فالمرادُ من ذلك الإيمان والاستقامة كما أمر الله الذي أنزل من السماء ماءً، وجعل منه كُلَّ شيءٍ حَيٍّ. وهُوَ الذي يُحذِّرُ من جُحود النِّعمةِ وكُفرِها؛ حتى لا يُصبحَ الماءُ غَوْراً، فلا يستطيعُ الجاحِدُ له طَلَباً.

والله قد أخرجَ الناسَ من بُطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، وجعل لهم السمعَ، والأبصارَ، والأفئدةَ؛ ليشكروه. وفي شُكره رحمةٌ بهم، وتحقيقٌ للتراحم فيما بينهم.

ومَن جعل لهم السمعَ والأبصارَ قادرٌ على أن يأخذَها، ومَن جَعَلَ لهم الأفئدةَ قادرٌ على أن يختمَ عليها.

والقرآنُ الكريم يخاطبُ الإنسانَ بواقعٍ في الإنسان ليس بعيداً عنه. إنه يُخاطبه بآياتِ الله في نفسه وفي الآفاق من حوله؛ لتظل التبصرةُ قائمةً مع الإنسان حيث كان.

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [3]

فاللهم ارزُقْنا صِدْقَ الإخلاصِ لكَ، وحُسْنَ التوَجُّهِ إليك.

---

(١) الواقعة: ٦٨- ٧٠.

(٢) الملك: ٣٠.

(٣) الأعراف: ١٨٥.

مع ابن كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هذه الآيات قوله:

يُخبرُ تعالى أنه يتوفَّى عبادَه في منامهم بالليل. وهذا هو التوفِّي الأصغر، كما قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ (٢)، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (٣)، فذكر في هذه الآية الوَفَاتَيْن: الكُبرى والصُغرى، وهكذا ذَكَر في هذا المقام حُكْمَ الوَفَاتَيْنِ الصُغرى ثم الكبرى، فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ﴾ أي: ويعلمُ ما كسبتم من

(١) الأنعام: ٦٠- ٦٢.
(٢) آل عمران: من الآية ٥٥.
(٣) الزمر: من الآية ٤٢.

الأعمال بالنهار. وهذه جملةٌ مُعترَضة دلَّت على إحاطة علمه تعالى بخَلْقه في ليلهم ونهارِهم، في حالِ سُكونِهم وفي حالِ حَرَكَتهم، كما قال: ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ ﴾ (١)، وكما قال تعالى: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ ﴾ أي: في الليلِ ﴿ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ (٢) أي: في النهار، كما قال: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ ﴾ (٣)؛ ولهذا قال هَهُنَا: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ﴾ أي: ما كسبتم بالنهار ﴿ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾ أي: في النهار. قاله مجاهد، وقتادة، والسُّديُّ؛ ﴿ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ﴾ يعني به: أجل كُلِّ واحدٍ من الناس ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم ﴾ أي: فيُخبركم ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ أي: ويجزيكم على ذلك، إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شراً فَشَرٌّ.

وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ أي: وهو الذي قَهَرَ كُلَّ شيءٍ، وخَضَعَ لجلاله وعظمته وكبريائه كُلُّ شيءٍ.

﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ أي: من الملائكة يحفظون بَدَنَ الإنسان، كما قال تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ (٤)،

---

(١) الرعد: ١٠.
(٢) القصص: من الآية ٧٣.
(٣) النبأ: ١٠، ١١.
(٤) الرعد: من الآية ١١.

وحَفَظَةً يحفظون عمله ويُحصونه عليه، كما قال: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢ ﴾ (١)، وقال: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨ ﴾ (٢)

وقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ أي: إذا احتضرَ، وحَانَ أجلُه ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ أي: ملائكةٌ مُوَكَّلُونَ بذلك. قال ابنُ عباسٍ وغيرُ واحدٍ: لِمَلَكِ الموت أعوانٌ من الملائكة، يُخرِجون الرُّوحَ من الجسد، فيقبضها مَلَكُ الموت إذا انتهت إلى الحُلقوم.

﴿ وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۝١٣ ﴾ أي: في حِفْظ رُوحِ المتوفَّى، بل يحفظونها ويُنزلونها حيث شاء الله ﷻ إنْ كان من الأبرار ففي عِلِّيين، وإنْ كان من الفُجَّار ففي سِجِّين، عياذاً بالله من ذلك.

وقوله: ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ﴾ قال ابنُ جرير: ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ ﴾ يعني: الملائكة ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ﴾، ويُحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ يعني: الخلائق كُلَّهم إلى الله يوم القيامة، فيحكمُ فيهم بعَدْله، كما قال: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٥٠ ﴾ (٣)، وقال:

(١) الانفطار: ١٠- ١٢.
(٢) ق: ١٧، ١٨.
(٣) الواقعة: ٤٩، ٥٠.

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ (١)

أخي المسلم: تدبَّر هذه الآيات، واعلَمْ أنك مُخاطَبٌ بها، وهي لا تُخاطبك بشيءٍ بعيدٍ عنك، بل تُخاطبك بما هو قائمٌ فيك، وواقعٌ بك أو عليك.

فاغتَنِمْ ما تنجو به، وبادِر بالأعمال الصالحة قبل فوات الأوان « اغتنم خمساً قبلَ خمسٍ: شبابَك قبل هَرَمِك (٢)، وصحَّتَكَ قَبْلَ سِقَمِك (٣)، وغناكَ قَبْلَ فَقْرِك، وفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِك، وحياتَك قَبْلَ مَوْتِك » (٤)

روى الترمذيُّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا (٥)، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلاَّ فَقْرًا مُنْسِيًا (٦)، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا (٧)، أَوْ مَرَضًا

---

(١) الكهف: ٤٧- ٤٩.

(٢) الهرم: كبر السّن وضعفه.

(٣) السقم: المرض.

(٤) المستدرك على الصحيحين: ٤/٣٤١، رقم ٧٨٤٦، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

(٥) بادروا بالأعمال: أي سابقوا وقوع الفتن بالإشتغال بالأعمال الصالحة، واهتموا بها قبل حلولها.

(٦) فقرا مُنسيا: أي نسيتموه، ثم يأتيكم فجأة.

(٧) غنى مُطغيا: أي للإنسان.

مُفْسِدًا (1)، أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا (2)، أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا (3)، أَوْ الدَّجَّالَ (4) فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوْ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ » (5)

كُنْ صادقاً مع نفسك. لا تخدعها بالأماني، تحسبها ماءً وهي سراب.

تدبَّرْ كتابَ ربِّكَ، واعمل بما يهديك إليه، وهو يهدي - في كُلِّ ساعةٍ - للتي هي أقوم.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ ﴾ أمرٌ واقعٌ لا محالةَ، وفاةٌ صُغرى، ولكنْ قد يُمسكها وقد يُرسلها إلى أجلٍ مُسمًّى، وفي الحالَيْن لن تفلتَ أو تَفِرَّ.

والإخبارُ بذلك تسديدٌ لخُطَى الإنسانِ وعَوْنٌ له؛ حتى لا يَضِلَّ أو يُضَلَّ؛ لأن مَنْ نَسِيَ عاقبته شُغِلَ بدُنياه، ومن اطمأنَ بها عَاشَ مفتُوناً بزينتها، غافِلاً عن عاقبتِها.

وخُطَى الإنسان في الحياة لا تَتَّزِن إلاَّ باليقين بالعَوْدِ إلى الله ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۞ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۞ ﴾ (6)، ومَنْ لا يُوقِن بذلك طَغَى وآثر الحياة الدنيا.

---

(1) مرَضا مُفْسِدا: أي للمزاج، مُشغلاً للحواس.

(2) هرمًا مُفنِّدًا: الفَنَدُ في الأصل: الكذب، وأفند تكلم بالفند، ثم قالوا للشيخ إذا هَرِم: قد أفند؛ لأنه يتكلمُ بالمُحرّف من الكلام عن سنن الصحة.

(3) موْتا مُجْهِزًا: أي سريعاً يأتي فجأة بحيث لا يقدر معه على التوبة. من أجْهزْتُ على الجريح، أي أسرعتُ في قتله.

(4) أوْ الدّجّال: أي خروجه.

(5) الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في المبادرة بالعمل، رقم ٢٢٢٨، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ.

(6) العلق: ٦- ٨.

أخي المسلم: هذه الآيات تبصرةٌ لك؛ لتعرف حقيقةَ نفسك وما أنت صائرٌ إليه، وتعرف ربَّك، فتخشاه في سرِّك وعَلَنك، وأنت خاضعٌ لقُدرته، مُحاطٌ بعلمه.

والقرآنُ - وهو يُتْلَى عليك - يُبصرك بما يجب أن تكونَ عليه، يُبصرك بالحقائقِ التي لا يستقيمُ سَعْيُك إلاَّ بها.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾

فطُوبَى لِمَن استبصَرَ بذلك، وَوَيلٌ لِمَن اتَّبَعَ هَواه، ونَسِيَ يومَ الحساب.

مع ابنِ كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هذه الآيات قوله:

يقول تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ ﴾ يا مُحَمَّدُ ﴿ ٱلْغَنِيُّ ﴾ أي: عن جميعِ خَلْقه، من جميع الوجوه، وهم الفقراءُ إليه في جميعِ أحوالهم ﴿ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ أي: وهو - مع ذلك - رحيمٌ بهم رؤوفٌ، كما قالَ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ (٢)

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ أي: إذا خالفْتُم أمرَه ﴿ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ ﴾ أي: قوماً آخرين. أي: يعملون بطاعته ﴿ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ أي: هو قادرٌ على ذلك، سَهْلٌ عليه، يَسيرٌ لَدَيه، كما أذهب القرونَ الأُوَل، وأتى بالذي بعدها، كذلك هو قادرٌ على إذهابِ هؤلاء، والإتيان

(١) الأنعام: ١٣٣- ١٣٥.
(٢) البقرة: من الآية ١٤٣.

بآخرين، كما قال تعالى: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ ﴾ (١)، وقال تعالى: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ ﴾ (٢)، وقال تعالى: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾ (٣)

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَـَٔاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ أي: أخبرهم - يا مُحمَّدُ - أنَّ الذي يُوعَدون به - من أمرِ المعادِ - كائنٌ لا محالةَ ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي: ولا تُعجِزون الله، بل هو قادرٌ على إعادتكم وإنْ صِرتُم تُرابًا، رُفاتًا وعِظامًا. هو قادرٌ لا يُعجزه شيءٌ.

روى ابنُ أبي حاتم، عن أبي سعيد الخدْرِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: « يَا بَنِي آدَمَ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ فَعُدُّوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ الْمَوْتَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَـَٔاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ » (٤)

﴿ قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ هذا تهديدٌ شديدٌ، ووعيدٌ أكيدٌ. أي: استمرُّوا على طريقكم وناحيتكم إنْ كنتم تظنون

---

(١) النساء: ١٣٣.

(٢) فاطر: ١٥- ١٧.

(٣) محمد: من الآية ٣٨.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم: ٥/٣٩٠.

أنكم على هُدىً، فأنا مستمرٌّ على طريقتي ومنهجي. كما قال تعالى: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ (١)

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ أي: أتكونُ لي أو لكم.

وقد أنجز الله تعالى موعودَه لرسوله ﷺ، فإنه تعالى مَكَّنَ له في البلاد، وحَكَّمَهُ في نواصي مُخالفيه من العباد، وفَتَحَ له مكةَ، وأظهره على مَنْ كذَّبه من قومه وعاداه وناوأه، واستقرَّ أمرُه على سائرِ جزيرة العرب، وكذلك اليمن والبحرين، وكُلُّ ذلك في حياته. ثُمَّ فُتحت الأمصارُ والأقاليم بعد وفاته، في أيام خُلفائه رَضِيَ اللهُ عَنْهُم أجمعين كما قال تعالى: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ﴾ (٢)، وقال: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴾ (٣)، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (٤)، وقال تعالى إخبارًا عن رُسُلِه: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ (٥)، وقال تعالى:

---

(١) هود: ١٢١، ١٢٢.
(٢) المجادلة: من الآية ٢١.
(٣) غافر: ٥١، ٥٢.
(٤) الأنبياء: ١٠٥.
(٥) إبراهيم: ١٣، ١٤.

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ (١)

أخي المسلم: هذا وَعْدُ الله. وقد تَحقَّقَ، والله لا يخلفُ وَعْدَه، فلنأخُذْ بالأسبابِ التي أمر الله بها في كُلِّ حالٍ، ولنَعْلَم أنَّ لله سُنَناً لا تتبدَّل ولا تتحوَّل، ولا تُحاملُ ولا تُحابي.

ومن سُنَنِ الله سبحانه أنه ﴿ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (٢)

فلنعْرِف سُنَنَ الله في خَلقه، ولننصُر الله في أنفسِنا قبل أن نطلبَ النصرَ على عدوِّنا؛ فإنَّ الله قد جَعَلَ هذه بتلك ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ ﴾ (٣)، ولنعْلَم - موقنين - أننا لَنْ نستطيعَ أن نَنْصُرَ الله في معركةٍ حتى نَنْصُرَه في أنفسنا، بتغليبِ أمرِه على أهوائنا.

وقد اقترَن وَعْدُ الله بأسبابٍ لا بُدَّ أن تُؤدَّى، وإيمانٍ وعملٍ صالحٍ لا بُدَّ أن يكون ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ (٤) وما عندَ الله لا يُطْلَبُ إلاَّ بطاعته.

وحديثُ القرآن - وهو يسوقُ العِبَرَ والعِظاتِ الواقعةِ في الأنفس وفي الآفاق - فيه عَوْنٌ للإنسان لاستقامته وهدايته إلى الصراط المستقيم ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ

---

(١) النور: من الآية ٥٥.
(٢) الرعد: من الآية ١١.
(٣) محمد: ٧.
(٤) آل عمران: من الآية ١٢٦.

إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ (١)

فمَن ذا الذي لا يستبصرُ بذلك وهو يرى حقيقةَ ما أخبر الله به في نفسه ومَن حوله ؟ وساحةُ الأرض تستقبلُ وتودِّعُ، يذهبُ هذا، ويجيءُ ذاك.

وذهابُ مَن كان قبلَك عِظَةٌ لك، ولن يُستأذَنَ أحدٌ أو يُستَشارَ في ساعة مجيءٍ أو ذهاب ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ ﴾ (٢)

وأنتَ تُوعَظُ بذلك لا تطلب منكَ إلاَّ أن تكون عَوْناً لإنقاذ نفسك من سُوءِ عاقبةٍ ومصير ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ (٣)

(١) الأنعام: ١٣٣، ١٣٤.
(٢) لقمان: من الآية ٣٤.
(٣) آل عمران: ١٨٥.

مع ابنِ كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هذه الآية قوله:

يقول تعالى: ﴿ قُلْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ لهؤلاء المشركين بالله في إخلاص العبادة له والتوكل عليه: ﴿ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا ﴾ أي: أطلُبُ رَبًّا سواه، وهو ربُّ كُلِّ شيءٍ، يَرُبّني ويحفظني ويكلؤني ويُدبِّرُ أمري ؟ أي: لا أتوكَّلُ إلاَّ عليه، ولا أنيبُ إلاَّ إليه؛ لأنه ربُّ كُلِّ شيءٍ ومليكه، وله الخَلقُ والأمر.

هذه الآية فيها الأمرُ بإخلاص التوكل، كما تضمنت الآيةُ التي قبلها (٢) إخلاصَ العبادةِ له لا شريك له. وهذا المعنى يُقرَنُ بالآخر كثيرًا في القرآن، كما قال تعالى مُرشدًا لعباده أنْ يقولوا: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾ (٣)، وقوله: ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ ﴾ (٤) وقوله: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ (٥)،

---

(١) الأنعام: ١٦٤.

(٢) هي قوله تعالى: ﴿ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ الأنعام: ١٦٣.

(٣) الفاتحة: ٥.

(٤) هود: من الآية ١٢٣.

(٥) الملك: ٢٩.

وقوله: ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ ﴾ [1]، وأشباه ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ إخبار عن الواقع يوم القيامة في جزاء الله تعالى وحُكمه وعَدله، أنَّ النفوس إنما تُجازى بأعمالها، إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًا فشرٌّ، وأنه لا يُحمَلُ من خطيئة أحد على أحد. وهذا من عَدْله تعالى، كما قال: ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [2]، وقوله: ﴿ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ۝٣٣ ﴾ [3]، قال علماء التفسير: فلا يُظلَمُ بأن يُحمَل عليه سيئات غيره، ولا يُهْضَمُ بأن يُنقَص من حسناته. وقال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝٣٩ ﴾ [4]، معناه: كُلُّ نفسٍ مُرتهنةٌ بعملها السيئ، إلاَّ أصحابَ اليمين، فإنه قد تعود بركاتُ أعمالهم الصالحة على ذراريهم، كما قال في سورة الطور: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ۝٢١ ﴾ [5] أي: أَلْحَقْنَا بهم ذرياتهم في المنـــزلة الرفيعة في الجنة، وإن لم يكونوا قد شاركوهم في الأعمال، بل في أصل الإيمان ﴿ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم ﴾ أي: أنقصنا أولئك السَّادةَ

(١) المزمل: ٩.
(٢) فاطر: من الآية ١٨.
(٣) طه: من الآية ١١٢.
(٤) المدثر: ٣٨، ٣٩.
(٥) الطور: ٢١.

الرُّفعاءَ من أعمالهم شيئاً حتى ساويناهم وهؤلاء الذين هم أنقصُ منهم منـــزلة، بل رفعهم ربُّهم تعالى إلى منـــزلةِ الآباء؛ ببركة أعمالهم، بفضله ومِنَّته. ثم قال: ﴿ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ﴾ أي: من شَرٍّ.

وقوله: ﴿ ثُم إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ أي: اعملوا على مكانتكم إنَّا عاملون على ما نحن عليه، فستُعرَضون ونُعْرَضُ عليه، ويُنبئنا وإيَّاكم بأعمالنا وأعمالكم، وما كُنَّا نختلف فيه في الدار الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾ (١)

أخي المسلم: ذاكَ ما ذكره ابنُ كثيرٍ في تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾

فلنَتَدبَّر ما جاء فيها؛ لنُصْلِحَ أعمالَنا، ولنُحسنَ التوكلَ على ربِّنا ونحن نأخذُ بالأسباب التي أمرَ بها، ولنَعلَمَ - موقنين - أنَّ إلى ربِّنا مرجعَنا، لا إلى أحدٍ سواه.

وتلك دلالةُ الحَصْر في قوله: ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ ﴾ أي: إليه لا إلى غيره.

وهذه الحقيقةُ لها دَلالتها في صِدق الإخلاص لله، وحُسن التوكل عليه، فلا

(١) سبأ: ٢٥، ٢٦.

توكُّلَ إلا على الله، ولا إنابةَ إلاَّ إليه؛ فهو ربُّ كُلِّ شيءٍ ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ (١)

والإخبارُ بذلك، والدعوةُ إليه - في آيات تُتْلَى - فيه تبصرةٌ لأهلِ الإيمان، ودعوةٌ لهم أن يكونوا - في جميع شئونهم - كما أمرهم الله وبَيَّنَ رسولُه ﷺ، مُسترشدين بما دعاهم إليه، مُستمسكين بما يُسدِّدُ خُطاهم على الصراط المستقيم؛ حتى يعودوا إلى الله وهم مسلمون ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (٢)

حقائقُ يُخاطَبُ بها الإنسانُ؛ ليعرفَ غايتَه ومصيرَه، ويُدركَ حكمةَ خَلقه وغايةَ وجوده، وأنَّهُ لم يُخلَق عبثاً ولا باطلاً، وأنَّ حكمةَ الخَلق تقتضي الرجوعَ إلى الله والحسابَ بين يديه. وأنَّ الإيمان بذلك هو السبيل لإقامة الحق والعدل بين الناس. ومَن لم يدرك حكمةَ خَلقه، وغايةَ وجوده، ضلَّ وأضَلَّ، وأفسدَ في الأرض وإنْ زَعَمَ أنه يُصلِح.

ومن هُنا يتفاوت الناسُ في سلوكهم تَبَعاً لاتِّباعهم الحقَّ أو الباطل. والحقُّ أنَّ الناس قد خُلِقوا ليعبدوا ربَّهم، وأنَّ الله كما بَدَأهُم سيعودون إليه، ويُحاسَبُون بين يديه.

والإيمانُ بذلك لا بُدَّ منه؛ لإقامة العدلِ في ذات الإنسان أوَّلاً قبل تحقيقه في معاملةِ الناس. والباطلُ ما خَالَفَ ذلك وعارَضَه، واتِّبَاعُ الباطل مُضِلٌّ مُفْسِدٌ.

وشتَّانَ ما بين مُتَّبِعٍ للحقِّ من ربِّه وبين مُتَّبِعٍ للباطلِ مؤثرٍ لهواه.

هذا يحسبُ أنَّ الحياة عبثاً وباطلاً ! فمرحباً - عنده - بكُلِّ ما يُحقِّقُ له منفعةً

---

(١) الأعراف: من الآية ٥٤.

(٢) آل عمران: من الآية ١٠٢.

عاجلةً، أو لَذَّة آنِيَة !!

وذَاكَ يُخضِعُ هواه لمرضاةِ الله، فلا يرى لنفسه إلاَّ ما كان حَقًّا، ولا يرضى لها إلاَّ ما يرضاه الله.

شَتَّانَ ما بين هذا وذاك في المقدمات والنتائج، ولا تَسْوِيَةَ بينهما في الحساب والجزاء.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ (١)

لا تَسْوِيَةَ بين مُفْسِدٍ ومُصْلِحٍ، ولا بين مُتَّقٍ وفاجرٍ، وإلاَّ كان الخَلْقُ عبثاً وباطلاً، وحاشَا أنْ يكون ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾ (٢)

أخي المسلم: تدبَّر ما تضمنته هذه الآية ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ لتعلمَ - علمَ اليقين - أن الصلاحَ والإصلاحَ متوقِّفٌ على اليقين بما تضمنته والعملِ به. وكُن على صلةٍ وثيقةٍ بالقرآن؛ حتى لا تُصَابَ - في زحمة الحياة - بالغفلةِ أو النسيان الذي يسيطرُ على أهل الضلال والخسران.

---

(١) ص: ٢٧، ٢٨.

(٢) المؤمنون: ١١٥، ١١٦.